أدب الاختلاف

عقيل بن محمد المقطري

دار ابن حزم

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار ابن حزم

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ٦٣٦٦/١٤

أدب الاختلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا

سَدِيدًا ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

أما بعد:

فقد كثرت أمراض الأمة المسلمة في هذه الأزمان المتأخرة، وتشعبت حتى شملت الجوانب الدينية. ومع كثرة هذه الأمراض، فإن هذه الأمة لا يزال فيها جوانب كثيرة من الخير. وهذا كله بفضل الله عز وجل أولًا، ثم بوجود كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ودعاء واستغفار كثير من الصالحين: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾. ومن الأمراض الخطيرة التي أصيبت بها هذه الأمة في هذه الأزمان خاصة مرض (الاختلاف) الذي شمل نواحي كثيرة ومنها العقائد والمناهج والسلوك والأخلاق... إلخ.

والناظر إلى شرع الله تعالى يجد أنه ما اهتم بشيء بعد توحيد الله مثل ما اهتم بجمع الكلمة ولَمِّ

الشمل. إن الإسلام دين واقعي يتعامل مع الإنسان على ما هو عليه، والله تعالى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فقد وهب سبحانه لعباده عقولاً متباينةً، من شأنها أن تؤدي إلى الاختلاف في التفكر واتخاذ المواقف في كثير من الأمور. ولذلك فإن الإسلام يتسع لتلك الاختلافات كلها طالما هي لا تهدد وحدة الأمة، فيكفي أن تتفق الآراء والتصورات في القضايا الكبرىٰ والقواعد الأساسية. أما الأمور الفرعية التي يساعد اختلاف الرأي فيها على الجنوح نحو الأفضل والأمثل فلا ضير فيه، على أن يكون لهذا الاختلاف ضوابطه وقواعده وآدابه. وفي هذا البحث سنتعرض لذكر حقيقة الاختلاف والنهي عنه وآدابه إلى غير ذلك من المباحث التي ستراها في هذا البحث. أسأل الله عز وجل أن ينفع به، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أبو عبدالرحمٰن/عقيل المقطري

أدب الإختلاف

تعـريفـه:

هو (منازعة تجري من المتعارضين لتحقيق حق أو إبطال باطل)[١].

(أنواع الاختلاف):

ينقسم الاختلاف إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ اختلاف تضاد.

ب ـ اختلاف تنوع.

ج ـ اختلاف أفهام.

أ ـ أما اختلاف التضاد:

فهو أن يكون كل فريق مصيباً فيما يثبته أو في

---

(١) التعريفات للجرجاني (ص ١٠١).

بعضه، مخطئاً في نفي ما عليه الآخر. وهذا النوع من أنواع الاختلاف محرم وأغلب الاختلاف الحاصل الآن بين الجماعات الإسلامية من هذا النوع، فتارة تُذَمُّ الطائفتان كما في قوله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فجعل أهل الرحمة مُسْتَثْنِين من الاختلاف. وكذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾.

وكذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما وصف أن الأمة: سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً قَالَ: «كُلُّهَا في النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ـ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ» وفي رواية أخرى: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ

وأَصْحَابي» فبيَّن أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا فرقة واحدة وهم أهل السنة والجماعة[1].

وتارة تذم طائفة دون الأخرى، كما إذا كان الاختلاف اختلاف تنوع، لكن إحدى الطائفتين تدعي أنها على حق والأخرى على باطل، والطائفة الثانية تقول بل كلانا على حق ففي هذه الحالة تُذم الطائفة الأولىٰ دون الأخرىٰ.

ب ـ اختلاف التنوع:

واختلاف التنوع على وجوه: منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة حتى زجرهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الاختلاف وقال: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ»، ومثله اختلاف

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٥ ـ ٣٧).

الأنــواع في صفــة الأذان والإقــامــة والاستفتــاح والتشهدات وصلاة الخوف وتكبيرات العيد وتكبيرات الجنازة إلى غير ذٰلك مما شرع جميعه؛ وإن كان قد يقـال: إن بعض أنواعـه أفضـل. فـإذا جحـد أحـد الفريقين ما عند الآخر انتقل من التنوع الجـائز إلى التضاد المحرم[1].

وأما إذا لم ينكر أحد الفريقين على الآخر فقد دل الفرقان على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل هذا، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ج ـ اختلاف أفهام:

وهو أن يفهم كل فرد أو طائفة الخطاب بفهم، بشرط أن يكون النص محتملاً لذلك الفهم، وله أمثلة منها:

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٨).

١ ـ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال للصحابة: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إلاَّ في بَنِي قُرَيْظَةَ». فمنهم من فهم أنه إنما أراد منهم الإسراع فصلوا العصر في الطريق، ومنهم من لم يصل إلا في بني قريظة. فأقرَّهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جميعاً ولم يعنف أحد الفريقين.

٢ ـ قول الله عز وجل: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. فخص الله سليمان بالفهم وأثنى عليهما جميعاً بالعلم والحكم.

تنبيه: هناك نوع آخر من الاختلاف ذكره الله في كتابه الكريم، وهو ما يمدح فيه إحدىٰ الطائفتين وهم المؤمنون، وذم فيه الأخرى، كما في قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فقوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ حمد لإحدىٰ الطائفتين وهم المؤمنون وذم للأخرى[1].

وهناك ما يسمى باختلاف التنزيل واختلاف التأويل، فاختلاف التنزيل مثّل له ابن تيمية رحمه الله بحديث ابن مسعود قال: (سَمِعْتُ رَجُلًا قَرأَ آيَةً سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم يَقْرَأُ خِلَافَها فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَىٰ النَّبِيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٩ - ٤٠).

فقال: «كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ، وَلاَ تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»[1]. وأما اختلاف التأويل فهو الاختلاف في تأويل القرآن أو السنة، ومثال ذلك (القَرْءُ) منهم من فسره بالطُّهْرِ ومنهم من فسره بالحَيْضِ).

(١) رواه مسلم.

التحذير من الاختلاف

لقد حذرنا الله من الاختلاف والتفرق في كتابه الكريم فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾.

وكذلك حذرنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

وسلم من الاختلاف، وإليك بعضاً من أحاديثه صلوات الله وسلامه عليه في ذلك:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (عبدالله بن عمرو بن العاص) رضي الله عنهما: أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. فخرج كأنما فُقِيءَ فِيْ وجهه حبُّ الرمان فقال: «أَبِهَـٰذَا أُمِرْتُمْ؟ أَوَ بِهَـٰذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هَـٰذَا، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ هَا هُنَا فِي شَيْءٍ. انْظُرُوا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا عَنْهُ»(١).

---

(١) رواه أحمد بإسناد حسن.

٢ ـ قوله عليه الصلاة والسلام: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»(١).

٣ ـ حديث أبي هريرة: «... ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ»(٢).

٤ ـ حديث ابن مسعود وفيه: «... لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»(٣).

٥ ـ «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا»(٤).

أسباب الاختلاف:

إن أسباب الاختلاف كثيرة جداً، قد أُلِّفَتْ فيها مؤلفات، خاصة منها (الإنصاف في أسباب

---

(١) رواه أحمد وأبو داود انظر صحيح الجامع (٧١٣٣).
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم وقد تقدم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

الاختلاف) وسأذكر ها هنا بعض الأسباب:

١ ــ عدم وصول الدليل:

وهذا وُجِدَ حتى في زمن الصحابة، فإن منهم من كان يشهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومنهم من يغيب عنه، وقد تفاوت أخذهم للأدلة فمستقل ومستكثر. ومثال ذلك ما رواه البخاري عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: نشهد على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم.

وكان أبو هريرة يفتي بغير ذلك ثم رجع عن هذا لما بلغه الحديث المتقدم.

وقد ورد عن الأئمة الأربعة الشيء الكثير من هذا.

٢ ــ نسيان الدليل بعد وصوله:

أحياناً قد يصل الدليل إلى العالم لكنه ينساه فيفتي بخلافه. والنسيان صفة من صفات المخلوقين حتى الأنبياء عليهم السلام. ويحصل في القرآن والسنة.

ولهذا كان نبي الله صلوات الله وسلامه عليه كثيراً ما يثني على أُبَيٍّ بن كعب ويقول: «كَمْ مِنْ آيَةٍ ذَكَّرَنِيهَا كُنْتُ قَدْ أُنْسِيتُهَا». وكان يقول في غير أُبي: «رَحِمَ اللَّهُ فُلاناً ذَكَّرَني آيَةَ كَذَا كُنْتُ أُنْسِيتُهَا». وهذا النسيان يكون في وقت ثم يتذكر أو يُذكر. ومثال ذلك من السنة ما ثبت أن حذيفة كان يصلي بالناس على دكان فكان معه أبو مسعود الثقفي فجذبه فقال: ألم نكن نُنْهَىٰ عن ذلك؟ فقال حذيفة: بلى ألم تر أني طاوعتك حين جذبتني؟ ـ يشير إلى أنه كان نسي.

٣ ـ عدم ثبوت الدليل:

وهذا السبب من أعظم أسباب الاختلاف، إذ قد يصحح الإمام أو العالم حديثاً ويضعفه غيره.

والذي ينظر في كتب العلماء المتقدمين يرى كثيراً من ذلك. وأحياناً يصحح ذلك العالم الحديث ويفتي بموجبه ثم يتبين له بعد حين أن الحديث ضعيف فيتراجع عن قوله الأول والعكس.

ومن أمثلة هذا التراجع أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان يقول بعموم حديث عبدالله بن عكيم: (لَا تَنْتَفِعُوا مِنَ الْمِيتَةِ بِإِهَابٍ وَلَا عَصَبٍ) وكان يرى أنه لا ينتفع من الميتة بشيء لا قبل الدبغ ولا بعده. فلما رأى اضطراب الرواة في حديث عبدالله بن عكيم تراجع[١] وذهب إلى حديث ابن عباس. وهناك مسائل كثيرة مثل هذا.

---

(١) الحق إن شاء الله أن حديث عبدالله بن عكيم ليس

٤ ـ قد يثبت الدليل ولكن يرى العالم أنه لا يدل على المقصود:

مثال ذلك من القرآن لفظة (القَرْءُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ فمن أهل العلم من قال: القرء هو الطهر. وقال آخرون: بل هو الحيض.

ومن السنة قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُصَلِّيَنَّ الْعَصْرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ» فمن الصحابة من رأى أنه لم يقصد أنهم لا يصلون في الطريق إذا حانت الصلاة، فصلوا ثم تابعوا السير، والفريق الآخر أخذ بظاهر الحديث (النص) فواصل السير ولم يُصَلِّ إلا في بني قريظة. فأقرهم النبي عليه الصلاة والسلام ولم يعنف أحداً.

= بمضطرب كما حققناه في رسالة للشوكاني بهذا الخصوص فالحديث عام مخصوص بحديث ابن عباس.

٥ ـ قد يثبت الدليل عند العالم إلا أنه يثبت لديه ما يعارضه ويكون أقوى من الأول فيميل إليه:

ومثاله: حديث: «إِنَّمَا هُوَ بَضْعَةٌ مِنْكَ» فمن أهل العلم من ترك العمل به نظراً لثبوت حديث: «مَنْ مَسَّ ذَكَرَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ» وهذا الحديث أقوى من الأول وأحوط.

٦ ـ التعصب:

كما يحصل عند أتباع المذاهب والجماعات والمشايخ... إلخ. هذا وقد أرجع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أسباب الاختلاف[١] إلى سببين، وهما: الجهل والظلم. وهذا اختلاف مذموم من الطرفين يكون سببه: تارة فساد النية لما في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض

(١) وهو اختلاف التضاد.

بالفساد ونحو ذلك، فيحب لـذلك ذم قـول غيره أو فعله أو غلبته ليتميز عليه، أو يُحب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد أو صداقة ونحو ذلك لما في قيام قوله من وصول الشرف والرئاسة له. وما أكثر هذا في بني آدم، وهذا ظلم، ويكون سببه تارة أخـرىٰ جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهل بالدليل الذي يرشـد به أحـدهما الآخـر، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل وإن كان عالمـاً بما مـع نفسه من الحق حكماً ودليلاً.

والجهل والظلم: همـا أصل كـل شرٍّ كمـا قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٧).

أدب الاختلاف في عصر النبوة

إن تفاوت الأفهام أمر لا بد منه نظراً لتفاوت القدرات العقلية التي وهبها الله للناس، ولذلك لا بد من حصول الاختلاف. إلا أنه من الواجب عند حصوله أن يُضبط بالضوابط الشرعية. لذلك نجد أنه رُغم حصول الاختلاف بين الصحابة إلا أنهم كانوا يردون ذلك الاختلاف إلى الله والرسول فيجدون الحل لذلك الاختلاف، ولم ينشأ عنه أحقاد أو عصبيات. وسأذكر هنا نبذة من آداب الاختلاف في عصر النبوة:

١ ـ التقوى وطلب الحق وتجنب الهوى عند الاختلاف.

٢ ـ رد المسائل المختلف فيها إلى الله والرسول.

٣ ـ التسليم لحكم الله ورسوله بعد الرجوع إليه.

٤ ـ إذا أقر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المختلفين كلاً على ما فهم أو عمل يفرحون بذلك ولم يحمل أحدهما الحقد على الآخر نظراً لحصول المخالفة. كما حصل للرجلين الذين حانت عليهما الصلاة ولم يستطيعا تحديد جهة القبلة فصليا على اجتهادهما ثم تبين أنهما صليا إلى غير القبلة فأما أحدهما فاكتفى بصلاته الأولى وأما الآخر فأعاد الصلاة، فلما سألا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال للأول: «أَصَبْتَ السُّنَّة» وقال للثاني: «لَكَ الأَجْرُ مَرَّتَيْنِ»[1].

فلم يحصل بين المختلفين شقاق ولا عداء.

٥ ـ الالتزام بأدب الحِوار، ولين الكلام، عند

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.

النقاش، وإصغاء كل من المختلفين للآخر، وبحث القضية من جميع الجوانب، والغرض من ذلـك هو إظهـار الحق على لسـان أي الفـريقين مـع تجنبهم للمراء.

أدب الاختلاف في زمن الصحابة

بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم إلى الرفيق الأعلى وتفرق الصحابة في الأمصار توسعت دائرة الاختلاف أكثر مما كانت عليه في زمنه عليه الصلاة والسلام.

ولكن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ضابطين لذلك الخلاف بالضوابط العلمية. فمن الأمـور التي حصل فيها الاختلاف:

١ ــ وفاته عليه الصلاة والسلام:

وهذا أول اختلاف حدث بعد موته صلوات الله وسلامه عليه، فإن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه أنكر موته عليه الصلاة والسلام واعتبر القول بـوفاتـه إرجافاً من المنافقين، ولكن أبا بكر الصديق رضي الله

عنه خرج إلى المسجد النبوي وحمد الله وأثنىٰ عليه وقال للناس وعمر فيهم: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، وقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عندئذ سقط السيف من يد عمر واستيقن أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد مات وقال: كأني لم أقرأ هذه الآيات. بل كأنها لم تنزل إلاَّ الآن.

٢ ـ اختلافهم في دفنه عليه الصلاة والسلام:

وبعد اختلافهم في موته عليه الصلاة والسلام اختلفوا في مسألة دفنه فمنهم من قال ندفنه مع الصحابة في البقيع، ومنهم من قال: بل ندفنه في

مسجده، حتى جاءهم أبو بكر رضي الله عنه وأخبرهم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم يقول: «إِنَّ الأَنْبِيَاءَ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يُقْبَضُونَ» وبهذا زال الخلاف، فدفن عليه الصلاة والسلام في بيت عائشة رضي الله عنها تحت الفراش الذي توفي عليه فحفر قبره تحته[1].

٣ ـ اختلافهم في تعيين الخليفة بعد رسول الله ﷺ:

اختلف الصحابة فيمن تكون الخلافة أفي المهاجرين أم في الأنصار.

قال ابن إسحاق: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر

(١) انظر: تحذير الساجد لشيخنا ناصرالدين الألباني.

وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبدالأشهل)[1].

هكذا كما يحكي هذا النص أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة فلما علم أبو بكر وعمر انطلقا إلى ذلك المكان. فقام خطيب من الأنصار وذكر مناقب الأنصار وأنهم أحق بالخلافة من المهاجرين، فلما انتهى أراد عمر أن يقوم ليتكلم وقد تخير الكلام الذي سيطرحه، إلا أن أبا بكر سبق في القيام فأثنى على الأنصار وذكر الكثير من مناقبهم ثم ذكَّر الحاضرين أن العرب في الجزيرة إن لم تكن الخلافة في قريش فلن يكون للإسلام هيبته، ونفوذه خارج الجزيرة، وأشار على الأنصار أن تكون الخلافة في رجلين: إما عمر وإما أبو عبيدة. فقام رجل من الأنصار فقال: منا أمير ومنكم أمير، عندئذ كثر لغط الحاضرين. فقال عمر: يا أبا بكر ابسط يدك فبسط

(١) سيرة ابن هشام (٢/٦٥٦).

يده فبايعه عمر ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار وكادوا أن يقتتلوا على مبايعته من شدة الزحام. وهكذا استطاع الصحابة رضي الله عنهم أن يخرجوا من هذه الفتنة العويصة والتي ليس فيها نص من القرآن ولا السنة وحسموا الخلاف دون أن يبقى في النفوس شيء من الغل أو الحقد.

نماذج من أدب الاختلاف بين الصحابة رضي الله عنهم

١ ــ عمر وابن مسعود:

اختلف هذان الصحابيان بمائة مسألـة كما ذكـر ذلك العلامة ابن القيم رحمه الله[1].

ومن جملة ما اختلفا فيه أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يرى تطبيق اليدين في الصلاة (أي يضمهما أثناء الركـوع بين فخذيـه) وينهى عن وضعهما على الـركب، أمـا عمـر فكـان يفعــل ذلـك وينهى عن التطبيق، والحق في هذه المسألة مع عمر رضي الله عنه ومع ذلك الاختلاف الذي حصل بينهما في تلك المسائل الفقهية فلم يؤثِّر على حب أحدهما للآخر،

---

(١) إعلام الموقعين (٢/٤١٨).

فلقد جاء إلى ابن مسعود اثنان: أحدهما قرأ على عمر، والآخر قرأ على صحابي آخر، فيقول الذي قرأ على عمر: أقرأنيها عمر بن الخطاب، فيجهش ابن مسعود بالبكاء حتى يبل الحصى بدموعه ويقول: اقرأ كما أقرأك عمر فإنه كان للإسلام حصناً حصيناً يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه فلما أصيب عمر انثلم الحصن.

ويقبل ابن مسعود يوماً وعمر جالس فلما رآه مقبلاً قال: (كَيْفَ ملىء علماً؟)[1].

هكذا كانت نظرة أحدهما للآخر، نظرة إجلال وتقدير وحب ومودة رغم حصول الخلاف بينهما في تلك المسائل التي بلغت المائة. فهل نحن اليوم في اختلافنا نقتدي بهذين الصحابيين الجليلين أم نظل ننفر من كل من خالفنا ونرميه بالتهم الكاذبة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في المدخل ـى السنن.

٢ ـ عمار وعائشة:

نال رجل من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بحضرة عمار بن ياسر رضي الله عنه والذي كان على غير موقفها يوم الجمل فيقول رضي الله عنه لذلك الرجل: اسكت مقبوحاً منبوذاً، أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ؟ أشهد أنها زوجته في الجنة، لقد سارت أمنا رضي الله عنها مسيرها وإنا لنعلم أنها زوجة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلانا بها، إياه نطيع أو إياها)[1].

فانظروا إلى هذا الأدب العظيم.

٣ ـ عمار وعمر:

وهكذا قضية عمار بن ياسر وعمر بن الخطاب لما أجنبا في الطريق ـ ولا ماء فتمرغا في التراب كتمرغ الدابة ثم صليا فلما وصلا إلى رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه.

عليه وعلى آله وسلم علمهما كيفية التيمم وهي ضربة واحدة للوجه والكفين، ثم إن عمر نسي هذا، فكان عمـار يفتي بعد ذلـك على حسب السنة في التيمم وهذا في خلافة عمر، وكان عمر لا يرىٰ ذلك، فذكره عمـار بالحـادثة فلم يستـذكر، فقـال عمار: يـا أمير المؤمنين إن شئت أن لا أفتي بهـذه القضية فعلت. فقال عمر: لا ولكن نُوَلِّكَ ما توليت. ولم يعنف عليه ولم ينكر عليه وإنما وكله إلى ما عنده من العلم.

من أدب الخلاف في الفتنة

أخرج البيهقي في سننه (٨/١٧٣):

أن عمران بن طلحة بن عبيدالله دخل على علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بعدما فرغ من موقعة الجمل وكانت هذه المعركة بين علي وطلحة بن عبيدالله والد عمران، فيرحب علي بعمران ويدنيه ويقول: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال فيهم عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ثم أخذ يسأله عن أهل بيت طلحة فرداً فرداً وعن غلمانه وأمهات أولاده. يا ابن أخي كيف فلانة؟ كيف فلانة؟ ويستغرب بعض الحاضرين ممن لم يحظوا بشرف صحبة رسول الله ﷺ، ولم يدركوا ماذا يعني أن يكون

الإنسان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم، فيقـول رجـلان جـالسـان على نـاحيـة البساط: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخـوانـاً في الجنـة؟. فيغضب علي رضي الله عنه ويقول للقائلين: (قُوما إلى أبعد أرض الله وأسحقها، فمن هو إذاً؟ إن لم أكن أنا وطلحة فمن إذاً؟ ويسأل بعضهم علياً عن (أهـل الجمـل) أمشـركـون هم؟ فيقول: من الشرك فروا قال: أمنافقون هم؟ فيقول: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً فيقال: فمن هم إذن؟ فيقول: إخواننا بغوا علينا).

من أدب الخلاف بين الأئمة

١ ـ أبو حنيفة ومالك:

من نظر في مذهب هذين الإمامين عرف أن الخلاف بينهما كثير، حيث تتباين الأسس التي يعتمدها كل منهما في المذهب، ولكن مع هذا نجد أن كلاً منهما يجل صاحبه ويثني عليه. فقد أخرج القاضي عياض في (المدارك) قال: قال الليث بن سعد: لقيت مالكاً في المدينة فقلت له: إني أراك تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت من أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة وقلت له: ما أحسن قول هذا الرجل فيك (يشير إلى مالك) فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام..)[١].

(١) انظر: الانتقاء لابن عبدالبر.

٢ ـ محمد بن الحسن (صاحب أبي حنيفة) والإمام الشافعي:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: ذاكرت محمد بن الحسن يوماً فدار بيني وبينه كلام واختلاف حتى جعلت أنظر إلى أوداجه تدر وتتقطع أزراره[1].

ويقول محمد بن الحسن رحمه الله: إن كان أحد يخالفنا فيثبت خلافه علينا فالشافعي فقيل له: فلم؟ قال: لبيانه وتثبته في السؤال والجواب والاستماع[2].

٣ ـ مالك وابن عيينة:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله (ومالك وابن عيينة القرينان ولولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز[3] وروى أن ابن عيينة ذكر مرة حديثاً فقيل

---

(١) الانتقاء.

(٢) الانتقاء.

(٣) انظر: ترجمة الإمامين من سير أعلام النبلاء للذهبي.

له: إن مالكاً يخالفك في هذا الحديث فقال للقائل: أتقرنني بمالك؟ ما أنا ومالك إلا كما قال جرير:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

ويقول: (كان لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً، ولا يحمل الحديث إلا عن ثقاة الناس، وما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك بن أنس)[١].

٤ ـ مالك والشافعي:

كان الشافعي تلميذاً عند الإمام مالك، ولم يكن قد تصدى للإفتاء. فسأل رجل الإمام مالكاً عمن اشترى قمرياً بشرط أن يصيح أبداً فإذا هو يصيح في بعض اليوم فقال: له الرد (أي للمشتري أن يرد القمري للبائع) فخرج السائل والشافعي ابن خمس عشرة سنة فقال له الشافعي: أيصيح أكثر اليوم أو

(١) الانتقاء.

يسكت أكثر اليوم؟ فقال: بل يصيح أكثر اليوم. فقال: ليس له الرد عليك. فدخل السائل على الإمام مالك وقال: انظر في أمري فقال: ليس لك عندي إلا ما أنبأتك به. فقال: إن بالباب من أصحابك من يقول: إنه لا يرد علي فقال: علي به، فأحضر الشافعي رحمه الله فقال: أنت تقول إنه ليس له الرد قال: نعم، سمعتك تحدث ـ وذكر الإسناد ـ أن النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لفاطمة القرشية: «أَبُو جَهْمٍ لَا يَضَعُ الْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ وَمُعَاوِيَةُ صُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ وَلَكِنِ انْكَحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ». فقال: وأيش فيه ما يدل على ما قلتَ؟.

قال: إنه لا يضع عصاه عن عاتقه أي كان كثير السفر، ويقيم فيما بين ذلك، إلا أن الغالب عليه كثرة الضرب في الأرض، فعبرنا بالغالب عن جميع أحواله توسعاً، ولغة العرب كذلك فقلت: إذا كان صياحه أكثر النهار لا يرد لأنه يعبر به عن جميع. فقال له

مسلم بن خالد الزنجي (وهو شيخـه): افْتِ فقد آن لك أن تُفْتي. فما أنف مالك رحمه الله أن يـرد على هذا التلميذ مسألته أو أن يعنفه وإنما سكت كالمُقِرِّ له. فرحمة الله على الجميع.

معالم أدب الاختلاف في عصر الأئمة

بالرغم من حصول كثير من الاختلاف بين الأئمة أنفسهم إلا أن ذلك الاختلاف لم يعكر صفو المودة والإخاء، بل كان كل منهم يثني على صاحبه ويحترم اجتهاده ويتهم رأيه، كما ينقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال: (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب). وسأذكر ها هنا أبرز معالم الاختلاف في عصرهم رحمهم الله:

١ ـ تقواهم لله عز وجل وبعدهم عن الهوى والرْغبة في الشقاق.

٢ ـ بذل ما في الوسع لإصابة الحق والوصول إليه.

٣ ـ إجراء الخلاف على القواعد العلمية.

٤ ـ إجراء الحوار في جـو من المحبة والـود. وإصغاء كل منهما لصاحبـه وترقب ظهـور الحق ولو على لسان المخالف.

٥ ـ التأدب بآداب الاختلاف الذي حصل لمن كان قبلهم.

٦ ـ الاحتكـام إلى الله ورسولـه وقبـول الحكم والاستسلام له بعد ظهوره.

٧ ـ الثناء على المخالف واتهام ما يحمله هو من الرأي.

٨ ـ تصويب المصيب والاستغفار للمخطىء مع التنبيه على ذلك.

نصـائــح

وفي الختام أنصح إخواني طلبة العلم بأن يجدوا ويجتهدوا في طلب العلم الشرعي، والذي بدوره سيوصلهم إلى الحق بإذن الله عز وجل. كما أنصحهم بعدم إضاعة الوقت في الجدال العقيم الذي لا يثمر. وأنصحهم بالابتعاد عن المراء فإنه يوصل المتجادلين إلى أن يحقد كل منهم على أخيه وإلى دفع الحق والعياذ بالله.

وفي الحديث الصحيح: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَلَوْ كَانَ مُحِقًّا»، ويقول أيضاً: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَىً إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ».

عن الحسن البصري قال: ما رأينا فقيهاً يماري.

وعن مسلم بن يسار قال: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زلته.

وقال محمد بن الحسين: وعند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان ويورث التفرقة بعد الألفة والوحشة بعد الأنس.

تنبيهات:

إذا كانت المسألة فيها للاجتهاد مساغ فلا ينكر على من عمل بها مجتهداً أو مقلداً وإليك بعض أقوال أهل العلم في المسألة:

يقول سفيان الثوري رحمه الله: (إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه) ويقول أيضاً: (ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً من إخواني أن يأخذ به) وقال الإمام النووي: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصاً ولا إجماعاً أو قياساً جلياً.

وقال يحيى بن سعيد: ما برح أولوا الفتوى يُفْتُونَ بحل هذا ويحرم هذا فلا يرى المحرم أن المحل هلك لتحليله ولا يرى المحل أن المحرم هلك لتحريمه.

آداب ينبغي مراعاتها عند حدوث الاختلاف

١ ـ الإخلاص وقصد الحق:

عند البحث والنظر في كتب أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين يجب أن يكون المقصد من ذلك هو الوصول إلى الحق، ولهذا فعلى طالب العلم أن يتجرد لذلك كل التجرد. وهذا المطلب من الناحية النظرية أمر سهل، لكنه عند التطبيق يكون صعب المنال، فكم من الناس من يدعي أنه يدعو إلى الحق (من الناحية النظرية) لكن عند التطبيق نجد أنه يدعو إلى نفسه وينتصر لشخصه أو لشيخه أو لمذهبه أو جماعته أو حزبه، ولعل هذا الذي يحصل من بعض طلبة العلم أثناء النقاش من التجريح الشديد للأشخاص والهيئات فيضلل ويفسق ويسفه،

وكنتيجة حتمية سيقود هذا الغلو صاحبه إلى الانتصار للنفس.

٢ ـ تحاشي وقوع الخلاف قدر الإمكان:

وذلك بعدة أمور منها:

أ ـ حسن الظنّ بالمخالف وتغليب جانب الأخوة في الله على كل اعتبار.

ب ـ حمل كلام المخالف المحمل الحسن.

ج ـ إذا صدر ما لا يمكن حمله المحمل الحسن فيعتذر عنه، ولا يعدم قاصد الحق أن يجد عذراً لصاحبه، وهذا ليس دعوة إلى تغطية الحق، بل الخطأ وارد ويمكن التنبيه عليه بألين عبارة.

د ـ رحابة الصدر عندما يصل إليك الانتقاد من إخوانك.

هـ ـ الالتزام بآداب الإسلام وذلك في انتقاء أطايب الكلام وتجنب الكلام اللاّذع الجارح.

و ــ رد الأمر المختلف فيه إلى الكتاب والسنة وقبول حكمهما بعد استبانته.

ز ــ الرجوع إلى أهل العلم ومسائلتهم عند تعذر استخراج الحكم من الكتاب والسنة.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع كلمة المسلمين، وأن يوحد صفوفهم على كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى منهج السلف الصالح، إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وفي الختام أتقدم بشكري الجزيل للأخ/ علوي بن محمد بن علي العزي حيث قام بتبييض هذه الرسالة.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك

أبو عبدالرحمن عقيل المقطري
تعز ـ اليمن

الفهرس